١٥

إيلخانات فارس

إيلخانية فارس

يتحدث ابن بطوطة عن مدن غربيّ إيران التى رآها على اعتبار أنها قاعدة إقليم سياسى أو إيلخانة من إيلخانات فارس منضمة إلى العراق - وهى عنده سلطنة العراق واسمها فى كتب التاريخ إيلخانية فارس - ففى ذلك العصر كانت البصرة وكازرون ويَزْد وإصفهان وتبريز وتَسْتُر وبغداد تابعة كلها لولاية واحدة أو إمارات أو إيلخانات المغول التى نشأت عن تفكك دولهم ، وهى إيلخانية فارس التى يسمِّيها سلطنة العراق، وسلطانها - كما ذكرنا - هو أبو سعيد ، وكان المغول بعد إسلامهم - أهل حب للإسلام ، وتكريم لعلمائه واهتمام بإنشاء المدارس والإنفاق عليها ، واحترام بالغ لأهل العلم والقضاء .

وقد سعد ابن بطوطة بذلك أيَّما سعادة ، ومن الآن فصاعداً سنجده فى بلاد فارس والمغول والترك والروم محلَّ تكريم عظيم ، وستنهال عليه الأموال ، وسيتغير أسلوب حياته تبعاً لذلك ، وسيتغير مِنْ ثَمَّ خُلُقه ونظرته إلى الحياة وسلوكه فيها كما سنرى ..

فعندما دخل شيراز لقى قاضيها « الإمام قطب الأولياء ، فريد الدهر ، ذا الكرامات الظاهرة مجد الدين إسماعيل بن محمد بن خداد - ومعنى خداد : عطية الله - ووجد عنده كرامة عظيمة ، وكان هذا الشيخ طاعن السِّنِّ ، ولكنه كان مبجَّلاً جدًّا من سلطان العراق أبى سعيد حتى إن

رسول هذا السلطان عندما دخل عليه « نزع شاشيته عن رأسه ، وهم يسمُّونها الكلا ، وقبَّل رِجْل القاضى ، وقعد بين يديه ممسكاً أذن نفسه بيده ، وهكذا فعل أمراء التتر عند ملوكهم » .

« وكان هذا الأمير قد وصل فى خمسمائة فارس من مماليكه وخُدَّامه وأصحابه، ونزل خارج المدينة ، ودخل إلى القاضى فى خمسة نفر ، ودخل مجلسه وحده منفرداً تأدباً ! » (ص ١٩٩) .

وبلغ من عظم مكان هذا القاضى أن كان الناس يلقِّبونه رسميًّا فى الخطابات والكتب الرسمية بلقب « مولانا أعظم » وقد تعلَّق به ابن بطوطة حتى إنه حرص على رؤيته مرة أخرى بعد خروجه من الهند ، فرآه سنة ٧٤٨ هـ قبل موته بقليل .

شيراز وكثرة الشرفاء فيها

وكانت كل من الإيلخانات مقسَّمة إلى ولايات تُسمَّى ممالك ، ولهذا فقد كان أمير شيراز هو الملك الفاضل أبو إسحق بن محمد شاه ، وهو تابع للسلطان أبى سعيد . وكان هذا الأمير يكره أهل بلده شيراز ويَحْذَرُهم ويحرِّم عليهم حمل السلاح ؛ لأنهم كانوا ذوى نجدة وقوة وجرأة على الملوك ، وقد بنى لنفسه إيواناً كإيوان كسرى .

وقد طالت إقامة ابن بطوطة فى شيراز وأكثر من مدحها ، وقال إنها أكثر بلاد الله شرفاً ، حتى إن أصحاب المرتبات منهم فيها ألف وأربعمائة ونيِّف بين صغير وكبير، وكذلك فإن الأولياء كثيرون جدًّا هناك ، ونحن نعرف أن ابن بطوطة كان شديد التعلُّق بالأولياء شديد الايمان بهم ، لا تفوته زيارة وليٍّ يمر به للانتفاع ببركاته ، ولا يترك مزارَ وليٍّ دون أن يزوره ويتمسح به ويصلى فيه، وكذلك فعل فى شيراز بالقطب الوليِّ محمد بن عبد الله بن خفيف المعروف عندهم بالشيخ .

الشاعر الفارسى : السعدى

وفى شيراز زار قبر « الشيخ الصالح المعروف بالسعدى ، وكان أشعر أهل زمانه باللسان الفارسى ، وربما ألمع فى كلامه بالعجمى ، وله زوايا كان

قد عَمَرَها بهذا الموضع حسنة ، بداخلها بستان مليح ، وهى بقرب رأس النهر الكبير المعروف بركن أباد.

وقد صنع الشيخ أحواضاً صغاراً من المرمر لغسل الثياب ، فيخرج الناس من المدينة لزيارته ، ويأكلون من سماطه ، ويغسلون ثيابهم بذلك النهر ، وينصرفون ، وكذلك فعلت عنده - رحمه الله - » (ص ٢١٠) . وهذا هو الشاعر الفارسى السعدى صاحب «ديوان جولستان».

زاوية الشيخ أبى إسحاق فى كازرون

ومن شيراز انتقل إلى كازرون ، وهناك نزل بزاوية الشيخ أبى إسحاق وقال إن من عادة أهل البلد أن يُطعموا الوارد - كائناً من كان- الهريسة المصنوعة من اللحم والسمن وتؤكل بالرقاق ، وهم يتمسكون بأن تكون ضيافة الوارد عليهم ثلاثة أيام .

« وهذا الشيخ أبو إسحاق معظَّم عند أهل الهند والصين ، ومن عادة ركاب بحر الصين أنهم إذا تغيَّر عليهم الهواء أو خافوا اللصوص نذروا لأبى إسحاق نذراً وكتب كل منهم على نفسه ما نذر به !

فإذا وصلوا بر السلامة صعد خُدَّام الزاوية إلى المركب وأخذوا الزمام ، وقبضوا من كل ناذر نذره » (ص ٢١٢). وهذا أغرب ما قرأناه عن الشيوخ ذوى الكرامات وما يُنذر لهم من نذور .

قبر عبد الرحمن ابن ملجم وقبة المختار ابن أبى عبيد

ومر ابن بطوطة بالكوفة ، ولم تطل إقامته بها ولا أفاض حديثه عنها ، ومما تجدر ملاحظته قوله: « ورأيت بغربىّ جبانة الكوفة موضعاً مسوَّداً شديد السواد فى بسيط أبيض ، فأُخبرت أنه قبر الشقىّ ابن ملجم ، وأن أهل الكوفة يأتون فى كل سنة بالحطب الكثير ، فيوقدون النار على موضع قبره سبعة أيام ، وعلى قرب منه قبة وضعت على قبر المختار بن أبى عبيد .

وقد زار كذلك الحِلَّة ثم كربلاء ، وهو يصفها فى صورة قريبة من وصفها اليوم ، ويتحدث عن عتبة مشهد الحسين - رضى الله عنه - وهى من الفضة ، وأخيراً ينتهى إلى بغداد .

بغـــداد

نقف بعض الوقت عند بغداد ؛ فهذه أول مرة يزورها رحَّالة كبير ، ويصفها لنا بعد خرابها على أيدى المغول ، وكلام ابن بطوطة عنها حزين بالطبع ، يقول :

« لم يبقَ إلا اسمها ، وهى - بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل إنحاء الحوادث عليها، والتفات أعين النوائب إليها - كالطَّلَل الدَّارس أو تمثال الخيال الشاخص ، فلا حسن فيها يستوقف البصر ، ويسترعى من المستوفز العناية والنظر، إلا دجلتها التى هى بين شرقيِّها وغربيِّها كالمرآة المجلوَّة بين صفحتين، أو العقد المنتظم بين لبتين ! » (ص ٢١٦) .

النفط فى العراق

يقول ابن بطوطة إنه كان فى بغداد ، أيام زيارته لها : « جسران يصلان شرقيَّها بغربيِّها ، وفيها المساجد التى يُخطب فيها ، وتقام فيها الجمعة، أحد عشر مسجداً ، منها بالجانب الغربىّ ثمانية وبالجانب الشرقىّ ثلاثة ، والمساجد سواها كثيرة جدًّا ، وكذلك المدارس إلا أنها خربت . وحمَّامات بغداد كثيرة وهى من أبدع الحمَّامات وأكثرها ، مطلية بالقار مسطَّحة به، فيخيَّل لرائيه أنه رخام أسود ، وهذا القار يُجلب من عين بين الكوفة والبصرة تنبع أبداً ، ويصير فى جوانبها كالصلصال فيُجرف منها ويُجلب إلى بغداد . وفى كل حمَّام منها خلوات كثيرة كل خلوة منها مفروشة بالقار ، مطليٌّ نصف حائطها مما يلى الأرض به ، والنصف الأعلى مطليٌّ بالجِصِّ الأبيض الناصع ، فالضِّدَّان بها مجتمعان متقابل حسنهما » .

ومن الواضح أن هذا القار مأخوذ من آبار النِّفط، أى : البترول ، وكانت عيونه كثيرة معروفة بالعراق من قديم الزمان ، وكان الناس لا يحفلون له ولا يهمهم من أمره سوى القار ، وكان يُستخرج من آبار البترول التى ينضب ما فيها أو يقل دفع السائل منها .

حمامات بغداد

ويصف ابن بطوطة حمَّامات بغداد وما كان فيها من الخلوات وهو يقول: « إن بكل خلوة أنبوبين : واحداً للماء البارد والآخر للساخن ، وفى

زاوية كل خلوة أيضاً حوض آخر للاغتسال ، فيه أيضاً أنبوبان يجريان بالحار والبارد ، وكل داخل يعطى ثلاثاً من الفوط : إحداها يأتزر بها عند دخوله، والثانية يأتزر بها عند خروجه ، والثالثة يُنشِّف بها الماء عن جسده؛ ولم أر هذا الإتقان بحقٍّ فى مدينة سوى بغداد ، وبعض البلاد تقاربها فى ذلك » .

ومعنى ذلك أن بغداد كانت لا تزال تحتفظ بشىء من جمالها وترفها السابق برغم ما جرت به عليها المقادير .

محلات بغداد

ويقول ابن بطوطة إن الجانب الغربىَّ من بغداد هو الذى عُمِّرَ أولاً ، ثم خرب ، وعلى ذلك فقد بقى منه ثلاث عشرة محلَّة فيها الحمَّامان والثلاثة ، وفى ثمانٍ منها المساجد الجامعة ، والمفهوم أن المراد بالمحلَّة الحىّ ، ويذكر من بين هذه المحلاَّت محلَّة باب البصرة ، وبها جامع الخليفة المنصور والمارستان فيما بين محلَّة باب البصرة ومحلَّة الشارع على الدجلة ، وهو قصر كبير خرب وبقيت منه آثار .

مشهد معروف الكرخى ومقامات بعض أئمة آل البيت

وزار ابن بطوطة فى محلَّة باب البصرة مشهد الصوفىّ المشهور معروف الكرخىّ، وذكر كذلك قبر الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق والد على بن موسى الرضا « وإلى جانبه قبر الجواد ، والقبران داخل الروضة ، عليها دكَّانة ملبَّسة بالخشب عليه ألواح الفضة » (ص ٢١٨) .

* * *